الطريق

قصة جديدة

بقلم الدكتور سهيل إدريس

هل تراها ستأتي ؟ انه يرجو ألا تفعل ، حتى لا تنكأ جراحه . لقد التأمت هذه الجراح منذ اشهر ؛ وهو يحسب ان آثارها قد امّحت الآن ؛ فينبغي ألا تأتي لمياء ، وهو في هذه الحالة من العياء والخور . سيكون مجيئها استغلالاً لضعفه ، سيكون هزيمة له .

ومع ذلك ، فهو يتساءل : لماذا كانت صورتها في ذهنه قبل ان يحدث ما حدث ؟ كانت عيناها آخر ما وعى من مرئيات قبل ان تهوي الهراوة على رأسه . وكان ذلك أقوى منه ؛ لقد اراد ان ينسى حبها ، ولا يشك في انه بلغ من ذلك ما يريد ، ولكنّ عينيها .. لا ، لن ينساهما ، على الرغم من كل شيء ؛ كان لهما بريق عذب يتذوقه بعينيه ، كما يتذوق ظامىء بشفتيه جرعة ماء مثلوج ؛ بريق يستصفي عينيها فتشفان ، ثم إذا هما توشكان ، لفرط شفافيتها ، ان تمتلئا كل لحظة بالدموع .

ولكن لماذا ؟ لماذا تعود اليه الآن دنيا لمياء بكل اجوائها ، بعد ان غارت في نفسه وقلبه ؟ سبعة اشهر مضت على آخر لقاء أيقن إثرها انه قد بريء من ذلك الحب الذي تكشّف له عن خيبة مريرة أترعت نفسه جراحات ؛ وهو واثق من ان عاطفته ليست وهماً او خداعاً ، وليست هي بعد نزوة عابرة : لقد كان حبه اول الامر يقيناً ، ثم طغى عليه الشك وتفاقم حتى قتله . ان لمياء لم تكن الفتاة التي خلقت له .

منذ ثلاثة اعوام ، كانت همّه الاول في الحياة ، كانت غايته منها ، او هكذا كان يخيل اليه . لقد بدأت جذور الحب تمتد في قلبه وتنمو ، منذ ان نجحا في شهادة البكالوريا ، فحسب ان الحياة شاءت ان تدمغها بطابع واحد ؛ ولكن سرعان ما تقلصت هذه الجذور حتى ذابت لتخلق في نفسه يقيناً بان عاطفته إن هي الا حصيلة العشرة الطويلة ، تلك التي تتيحها القربى بين ابناء الاعمام . كانت لمياء ابنة عمه ، وكانت بهذا اقرب الفتيات اليه ، واكثرهن وقوعاً في مدار عينيه ، فلا غرو ان يتفتح للحياة على مرآها ، وان تكون اول من يدخل وجوده .

كان هذا منذ ثلاثة اعوام ؛ ولكن ما أطولها حقبة في حساب شعوره ووجدانه ! اي طفل كان ، واي انسان هو الآن ! وهي ، لمياء ، ما كانت وما اصبحت ؟ انه ليشفق من الجواب ويؤثر ان يظل على صمته . منذ ردح من الزمان طويل وهو يشعر انه خلّفها وراءه في اول الطريق . كذلك كان يتمثل حاله معها منذ نجحا في تلك الشهادة ، كائنان يبدأان السير . ولكن ما اسرع ما تجاوزها في طريق الحياة ! وكان يتجه له ان يلتفت خلفه بين آن وآخر ، فيومىء لها متلهفاً ان تلحق به ، فاذا هي تظل حيث كانت ، كأنما سمرت الى الارض ، أو كأن قوة غير بشرية كانت تدفعه في الطريق فينهبها نهباً . وكان يدرك كل يوم ، اعمق فأعمق ، انه حب يخفق في توسيع افقه ، فيزداد إحساسه ابداً بالاختناق في داخل حدوده ، كان يريد لهذا الحب الامتداد والطموح حتى ليعانق إطاره كل شيء في الحياة . ولكنه كان يرى لمياء أعجز من ان تدفع هذا الحب الى أبعد من الظل الذي كان جسمها يخلّفه على حافة الطريق .

— يجب ان اغير ضماداتك ..

ويقطع عليه صوت الممرضة سلسلة افكاره ، فيعود الى واقعه ، ويحس بألم شديد في رأسه ، كأن نسيانه كان كافياً لعدم الشعور به . وتسأله الممرضة إن كان يشعر بتحسن . فيومىء بعينيه ايجاباً ، وهو مدرك انه يخدعها ويخدع نفسه ، ثم يسألها عن حال رفيقيه في الغرفة المجاورة ، وعما اذا كان بوسعه ان يراهما ، فتجيبه بالنفي وتدعوه إلى التزام الهدوء التام .

ويغمض عينيه ، فتمتلئان بصورة ذلك الحشد الزاخر من رفاقه ، من طلاب وعمال ، متجهين الى دار تلك المفوضية الاجنبية . كانوا قد وقفوا يهتفون بسقوط وزير الخارجية ، ذلك الذي تمثل هذه المفوضية حكومته ، من اجل تصريح حمّله لهجة عداء صريحة للعرب وتودد مكشوف لأعدائهم ، فاذا هم يفاجأون

برجال الشرطة يحيطون بهم ، ثم يقتحمون صفوفهم ، ويعملون هراواتهم فيهم ، فيصاب منهم قليلون ويفر الباقون . وحاول هو ان يقاوم ، فتضافر عليه ثلاثة من رجال الشرطة ، واذا العصي تهوي على مواضع من رأسه وجسمه ؛ ولم يستطع ان يصمد لها طويلاً ، فأغمض عينيه . وقبل ان يتهاوى ، طافت بمخيلته طوفة سريعة صورتها هي ، لمياء ، ثم فقد كل احساس .

وسمع طرقاً خفيفاً على الباب ، فخفق قلبه ، لعلها هي . وظل مسبلاً جفنيه . واقترب وقع الخطى من سريره . وشاء ان يمضي في اغماض عينيه ، ولكنه لم يستطع . ولم تكن هي ، كانَ شقيقها ، ابن عمه سامي . وبعد ان حياه ، انحنى فوق جبينه فقبّله . وارتعش للمس شفتيه . ان في حضوره نفحة من لمياء . ولكنه سارع فخنق هذه الخاطرة . لم يكن يحب سامي لانه شقيق لمياء . كانت تربطه به رابطة اعمق وأقوى ، رابطة تتغلغل في احساسه وتجري في دمه ، رابطة الاحساس القومي الواعي . ومع ذلك ، فان سامي هو الذي ابتعث في نفسه دنيا لمياء من جديد ، ولكن كما تبتعث ذكرى السعادة ذكرى الشقاء . كان سامي عالَماً ، وكانت لمياء عالماً غيره .

إنه ليذكر الآن يوم دعاه سامي الى منزلهم ليحدثه في امر تنظيم مظاهرة عامة بمناسبة ذكرى « وعد بلفور » ، وكانت الغاية من هذا اللقاء ان يتعهد كل منهما بتنظيم صفوف رفاقه من الطلاب ، فقد كانا ملتحقين بمدرستين مختلفتين . وإذ هما يتحاوران دخلت عليهما لمياء ، فأخذت تستمع الى ما يقولان ، حتى إذا ادركت موضوع حديثهما ، انصرفت عنهما وعلى شفتيها بسمة ساخرة ، وإذ بلغت الباب التفتت اليهما وقالت :

— الا تعتقدان ان هذا سخف تضيعان به وقتكما ؟

فانتفض سامي غضباً ، ونفر اليها وفي عينيه الشر . ولكنه سارع هو فقبض على ذراعه ، ورجاه ان يهدّىء اعصابه ، وحين غادر منزلهم يومذاك ، لم يدر سبب حركته : أهي عاطفته تجاه لمياء شاءت ان تحول دون ان يصيبها اخوها باذى ، ام هو شعورٌ غامض بان لمياء لا تستحق ان يؤبه لها في مثل هذا المضمار ؟ لقد كان يؤذيه دائماً ان يراها لا تكترث بما كانوا يكترثون به من شؤون البلاد ، وتعبّر عن كرهها للسياسة ، وتتبرم بالمجتمع الذي يتحدث عنها . وكثيراً ما كانت تغادر مجلسها إذا خاض القوم في امرٍ يتعلق بسياسة الحكومة تجاه الشعب ، أو بالنفوذ الاجنبي على البلاد ، كأنها لم تكن تدرك معنى ذلك ، او لم يكن هذا يعنيها في شيء .

وكان ما يُمعن في إيذائه انها فتاة تقبل على العلم ، وتنهل من منابع الثقافة ، وانها بعد ان نجحت في شهادة الفلسفة ، التحقت بكلية الحقوق ، بينما اضطر هو الى وقف دراسته والالتحاق بمتجر والده ليعينه في تصريف شؤونه . وكان يسيراً عليه ان يدرك ان صراعاً عنيفاً كان يقوم في نفسه بين حبّه وحسّه القومي . كان يؤلمه ان يرى الفتاة التي يحب عاطلة من هذا الحس . ذلك ما كان يباعد بينه وبينها اكثر فاكثر ، ويخلّي عاطفته من الحميّا التي لا تعيش عاطفةٌ بدونها . كان في قرارة نفسه املٌ مبهم بان تكون لمياء شريكة حياته يوماً ؛ ولكن هذا الامل كان يبدو له مستحيل التحقيق ما مرت الايام . . كان موقناً بانه محكوم عليه بان ينذر حياته للكفاح من اجل وطنه وبلاده وامته . وما كان ليفهم ان ترافقه في هذه الطريق روحٌ مغلقة لا تهتزّ لما يهتز له ولا تستجيب لشواغله وهمومه . على انه كان شديد الاهتمام بالا ينبّه لمياء الى شيء من ذلك ، لايمانه بانه لا خير في روح لا تستيقظ من تلقاء نفسها على مثل هذا الحسّ . ولكنه خلا يوماً بلمياء في شرفة منزلهم ، فشعر بان حبّه لها يومذاك كان مستدقاً رهيفاً ؛ وبدلاً من ان يكون في ذلك تبرير لاغفال ما كان يشكوه من لمياء ، كان فيه دعوة ملحة لاثارته . كأنّ مشاعره وَحدةٌ لا يضعف منها جانب على حساب جانب ، ولا يقوم إحساس منها مقام إحساس . وإذن ، فانه لم يجد يومذاك بدّاً من ان ينبهها بطريقة خفية الى هذه الثغرة في حياتها . وما اشدّ ما آلمه رَجْعُ ذلك في نفسها ! لقد استخفّ بها الغضب سريعاً ، فاذا هي تنفر منه ، وتبدأ في الادلال بدرجتها من الثقافة ، وتشعره بانه في ذلك دونها . ثم انتهت الى القول بهزؤ :

— لقد تركنا لكم انتم الرجال امر الاهتمام بالبلاد وانقاذها !

وحاول كثيراً ان يُلجم ثورته ويضبط اعصابه ، ولكنها امعنت في السخرية وظلّت تُدلّ بعلمها عليه ، فلم يتمالك نفسه طويلاً ، وإذا هو ينفجر فيؤنبها وينعى عليها موت وجدانها ، ثم ينقلب فيسخر بها وبالفتيات اللواتي يقضين وقتهنّ كله في قراءة الروايات الغرامية وارتياد دور السينما والاهتمام بشؤون التجمّل امام المرايا . . ورآها بعد ذلك تغادر الشرفة الى داخل المنزل وتخلفه وحده ، فنهض والارتعاش يهزّ جسده وخرج من البيت يكاد لا يتبيّن طريقه . . وادرك ذلك اليوم انه قد فقد

لمياء ، وانه لا خير له في ان يلقاها بعد ، فان سبيله في الحياة تجانب سبيلها ابداً .

— كنت اودّ ان اجلب لك معي صحف اليوم ، فكلها قد استنكرت تدخل رجال الشرطة في المظاهرة ، ولابدّ ان . .

لقد كاد ينسى حقاً وجود سامي الى قربه ، والتفت اليه يستمع الى حديثه . وظل ينظر الى عيني سامي وشفتيه . ما أشد شبهه بها ؛ هي لمياء ! إنه كاد ينسى قسمات وجهها . سبعة اشهر مضت . بلى ، لقد قصد بيت عمه مرات عديدة ، ولكنه كان ينتهز الفرصة التي تقصد فيها لمياء كليتها ليتفادى من لقائها . وما كان ذووها يدركون من امر خصامهما شيئاً . ومرةً واحدة فقط ، سأله سامي لماذا انقطع عن زيارتهم ، وقال ان لمياء ابدت استغرابها ، فتصنّع عدم الاهتمام وتعلل بكثرة الأعمال . سبعة اشهر يشعر الآن في نهايتها ان جراح قلبه قد التأمت ، وهو من اجل هذا يرجو . . .

— ارى انك متعبٌ يا عزيزي ، ولن اطيل مكوثي بعد . سآتيك غداً وارجو ان تكون صحتك قد تحسنت .

ونهض ابن عمه يصافحه ، فاحتفظ بيده وهمّ ان يقول له شيئاً لم يكن يدري ما هو ، ولكن سامي اومأ اليه ان يظلّ صامتاً ، وغادره وهو يبتسم له بحنان .

ونام ليلته الاولى تلك وهو يشعر بضيق شديد ، لا يدري أهو من المٍ في رأسه ، ام من احساسٍ بالفراغ في قلب جفّت فيه العروق .

★

وأفاق صباح اليوم التالي على المٍ ثقيل في رأسه ، فكأنه يحمل اعباء مرهقة . كان الوخز يشتدّ في جميع انحاء رأسه ؛ وحتى عيناه غشيتهما غشاوة رقيقة لم يكن يتبيّن معها اشكال الاشياء بوضوح . وحاول ان يتحرك في سريره ، فأعجزه ذلك وثقل رأسه وثقل ، ثم ادركته الغيبوبة .

وحين فتح عينيه مرة اخرى ، رأى الطبيب والممرضة إزاءه ، تطل من خلفهما عينان جاحظتان . عينان صافيتان يعرفهما . واسبل جفنيه . انها هي . كان يودّ لو انها لم تأت . ومع ذلك ، فكان موقناً انها ستأتي . وظلّ مغمضاً عينيه لحظة طويلة ، وسمع وقع اقدام تبتعد ، فخشي ان تكون على وشك الخروج ، ونظر ، فاذا هي منحنية فوقه ، وقد خرج الطبيب والممرضة ، وفي عينيها سؤال لهفة وخوف . وتمتمت باسمه مرتعشاً . وسمعها تقول بعد هنيهة :

— اوصاني الطبيب ألا امكث طويلاً عندك . انت بأشد الحاجة الى الراحة . اسمح لي الآن ان اخرج .

وامسكت بيده ، فشد على يدها ، وسرعان ما انحنت ولامست بشفتيها ظاهر كفه ؛ وحين واجهته بعينيها من جديد لم يدر أكانت فيهما حقاً دموع ، ام انه فرط الشفافية . وشعر بحرارة يدها تسري في كفه ، ثم سمعها تتمتم « سامحني . . سامحني . . » وانفلتت على عجل ، فخرجت من الغرفة .

★

وحين خرج من المستشفى ، بعد ثلاثة عشر يوماً ، كان في ضميره سؤال واحد : ماذا دهى لمياء ؟ لقد حالت دنيا من غموض ، وعبثاً حاول ان يستكنه سرّها او يسبر غورها . ولقد زارته اربع مرات ، وكانت تحمل معها كل مرة باقة من الزهور ، فتضعها في الوعاء ، وتجلس على مقربة من سريره ، وعلى شفتيها بسمة حزينة ، وفي عينيها صمت مبهم ؛ بل كانت كثيراً ما تصرف بصرها عنه حين تلحظ انه يرنو اليها . كأنها كانت تشعر بالخجل من النظر اليه . وسألها أسئلة كثيرة عن شؤون حياتها ودراستها ، فاجتزأت باجوبة يسيرة موجزة ، وكانت ترجوه ألا يكثر من الكلام نزولاً عند رغبة الطبيب . ولكنها انقطعت عن زيارته يوم أعلمه الطبيب ان بوسعه ان يغادر المستشفى متى شاء ، فآثر ان يبقى ثلاثة ايام أخرى يستجمع فيها قواه الضائعة .

وكان اول ما طرحه على سامي ، حين اقبل يزوره في البيت ، سؤال عن لمياء . فاذا بسمة غامضة تجول على شفتي ابن عمه ، وإذا هو يقول ان لمياء بخير وانها سألته عنه غير مرة . ولم يقنع بهذا الكلام ، فألحّ على سامي يسأله سبب بسمته . ومال عليه ابن عمه يقول :

— انها منذ ثلاثة ايام منهمكة بعمل وجتني ألا أطلعك عليه !

وادرك من هذه العبارة ان بودّ سامي ان يكشف له ما كانت لمياء تحرص على اخفائه . وعلم ان ابنة عمه انصرفت بعد آخر زيارة له في المستشفى الى تنظيم حملة مع عدد من رفاقها ورفيقاتها لجمع الملابس من البيوت من اجل توزيعها على اللاجئين الفلسطينيين في الجنوب . .

★

قال له سامي وهو يومىء بيده الى خيمة كبيرة تجمّع عندها حشدٌ من الناس :

— اعتقد انهم هناك .

حلم ..

ربما مسّحت جرحي ، وجراح الاصدقاء
في غدٍ كالحلم ، ملتف المنى
ربما صفقت الشمس ، غـــداً ، للسعداء
ونشيدَ ، لفّ ارجاء الدنى

*

ربما فتّحت عينيّ ، عـــلى ذاك النهارْ
وعلى طفل خلي الصدر ، بكر
في غد ، قد يكشف الحب ، لعيني الستار
عن جباه كرفيف الدف ، سمْر

*

قد أراني ، في غد ، أجري على صدر الحقول
انشد الشعر ، لشعبي ، ورفاقي
آه ، لو يكحل اجفاني غدي ، آهٌ تطولْ
لو أغني غدنا ، آن التلاقي

*

قد أراني ، في غد ، ما زلت أحيا ، وأغني
فوق ارض ، دفنت احزان شعبي ،
فوق ارض ، كالهوى ، كالهدب سمحاً ، كالتمني
ربما عشتُ ، واخواني ، وحبي

*

ربما قهقهتُ ، في رأد النهار المستنيرْ
معْ رفاقي ، في الغد الحلو البديع
ساخراً ملء فمي ، من أمسنا الوغد النّكير
من ضريح ، طيّه الماضي الوجيع

*

هل أراني ، وأخي الانسان ، في صبح الحياة؟
هل نشمُّ الورد ، والخبز ، غدا ؟
ربما نفّضتُ ، عن قلبي ، جراحاً داميات
لو يسير الشوط بي ، حتى المدى

حمص **نصوح فاخوري**

ومضيا يهبطان المنحدر بسرعة . وشعر هو ببعض التعب ، ولكنه لم يشأ ان يشكو امره الى سامي . فقد نصحه ابن عمه ان يعدل عن هذا السفر خشيةً على جروح رأسه التي لم يمض على التئامها الا ايام قليلة ، ولكنه اصرّ ، فكست شفتي سامي بسمةٌ لا تخلو من خبث ، واستقلا السيارة في الصباح الباكر .

واقتربا من الخيمة الصاخبة ، وسمعا اصوات النساء تطلب نصيبها من الملابس . ورأى بعض الشبان من رفاق ابن عمه ينظرون اليهما قادمين نحوهم ، فيصيح احدهم مرحباً بهما . ويبحث هو بين هذا الحشد الزاخر حتى رآها ، هي .

كانت منحنية على كيس كبير تخرج منه بعض الملابس ، وتسلمها الى امرأة عجوز كانت واقفة الى قربها .

ودنا منها دون ان ينبس بحرف ؛ ورآها تلتفت اليه التفاتة سريعة ، ثم تعود الى عملها كأنها لم تعرفه ، وما تلبث ان تلتفت مرة اخرى ، على مهل ، والاحمرار يصبغ وجنتيها ، ثم تتمتم :

— أهذا انت ؟.. كدت لا اعرفك بهذه القبعة !

قال لها وهو يبتسم : — وانا ايضاً .. كدت لا اعرفك.. بين هؤلاء المساكين !

فرأى وجهها يزداد احمراراً ، ورأى عينيها ترنوان اليه ، وفيهما ذلك البريق العذب الذي كان يتذوّقه بعينيه كما يتذوق ظامىء بشفتيه جرعة ماء مثلوج . ولكن هاتين العينين امتلأتا بالدموع حقاً ؛ وانطبعت على شفتي لمياء بسمة حزينة ، وقالت له وهي تحزم الكيس الكبير الذي كان بين يديها :

— ارجوك الا تزيدني خجلاً بنفسي . لقد شعرت باني فتاة لا قيمة لها حين رأيتك تتألم في سريرك من الجراح التي اصبت بها..

فجعل يربت على كتفها ويدعوها للصمت ، ولكنها قالت :

— أحمد الله على ان هـــذه الجراح علمتني الدرس الذي لم تعلمني اياه الكتب .

وأمسك بذراعها فأنهضها ، فراعه جمال وجهها وقد سال عليه العرق ولحقه الغبار وتشعّث شعرها فبدا عليها الاجهاد . وقالت له وهي تشفق من ان ترفع بصرها اليه :

— اتعاهدني على الا تتخلى عني بعد الآن ؟ ألا تتركني وحدي في الطريق ؟

— لم اتركك يا لمياء ، وانما انت التي تخلفت .. أما الآن فسنسير معاً ، جنباً الى جنب .

وصمت هنيهة ثم ردد ، وهو ينظر الى البعيد ، كأنما يستشرف وطناً حبيباً يعي حدوده الكبرى :

— نعم .. يجب ان نسير معاً ، جنباً الى جنب .

وتأبط ذراعها ومضى بها يبحث عن سامي .

سهيل ادريس